الرّابطة القلميّة بين وهم الحداثة وفاعليّة التّراث

The Pen League between illusion of modernity and effectiveness of heritage.

برودي خديجة/ طالبة دكتوراه

أ. د. محمّد مرتاض

قسم اللغة العربية وآدابها –جامعة أبي بكر بلقايد-تلمسان(الجزائر)

مخبر الدّراسات الأدبيّة والنّقديّة وأعلامها في المغرب العربي، جامعة تلمسان.

baroudi.khadidja2@gmail.com

cmortad2002@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2021/04/01 تاريخ القبول: 2021/05/25 تاريخ النشر: 2021/11/04

- **ملخص:**

لن يكون بدعا أن نجعل من التّراث العربي وجها آخر للهويّة، فالتّراث هو الماضي الحاضر الذي يحضر باستمرار حينما نحاول أن نخطوَ خطوات أمام المستقبل لأنّه قاعدة الذّهب التي يقام على أساسها كلّ جديد يرجى منه أن يثمر وهذا ما أثبته الواقع والتّاريخ، فالعودة إلى التّراث لا تقتصر على مساءلة الماضي بل لابدّ من الاستفادة منه والانطلاق منه نحو كلّ جديد، والحداثة العربيّة التي من المفترض أن تكون خلاصة هذا التّراث وخلاصة العقل العربي، أصبحت حبلا نصّب لشنق هذا التّراث عند من نادى بها من الأوساط الثّقافيّة التي تشرّبت الحداثة الغربيّة، وكانت (الرّابطة القلميّة) من أوائل المدارس الأدبيّة التي تبنت (الفكر الحداثي الغربي) وروّجت له، وبدلا من أن تجعل من الحداثة حقيقة منتقاة من واقعنا الثّقافي العربي وامتدادا لتراث أثبت فعاليته حتى بعد مرور (خمسة قرون)، جعلت منها وهما جنى على أدبنا وخصوصيّته وذلك حينما نادوا بالقطيعة وتجاوز التّراث وإقصائه من الميدان الأدبي وإليهم تعزى كل دعوة لتغيير الأدب .

- **الكلمات المفتاحية:** التراث العربي، الهويّة، مساءلة الماضي، وهم الحداثة، الرّابطة القلميّة، الأدب العربي.

Abstract:

It wouldn't be a hersy to make the Arab heritage another face of the identity, because heritage is the present past that's constantly present when we try to make steps towards the future, because it's the golden base in which every new is established, hoped that it will bear fruit and this is

proven by reality and history, returning to heritage is not limited to questioning the past but rather it's necessary to take advantage of it and and start from it towards everything new, the Arabic modernity which is supposed to be the summary of this heritage and the summary of the Arab mind, rather it become a strand to hang this heritage by those who called for it from cultural circles that imbibed with western modernity, The Pen League was one of the first literary schools to adopt and promote western modernist thought, instead of making the modernity a reality selected from our Arab culture and an extension of a heritage that has proven it is effectiveness even after five centuries, it made it an illusion that diminished the value and specificity of our literature, and that when they called for a boycott the heritage from the literary field, and to them every call to change literature is attributed to them.

key words: Arab heritage; identity; questioning of the past; illusion of modernity; Pen League; Arabic literature.

مقدمة:

كانت سنوات عجاف وقحط، تلك المرحلة من عمر الأدب العربي حسب رأي روّاد الحداثة، والتي سبقت ما يُسمى بعصر النّهضة، لا على مستوى النّتاج الأدبي وجودته فحسب، بل على مستوى الجدّة والحداثة أيضاً، فدخل الأدب خلالها في معترك كبير، ومخاض عسير، تولّد عنه - ببزوغ شمس النّهضة- ولادة أدب جديد بمقاييس عالميّة، هكذا اعتبره روّاده، وأجمعوا على أنّ (النّهضة) هته هي من تكفّلت برعايته، ودفعت به نحو العالمية، وإذا ما قلنا (النّهضة)، فهي بالضّرورة، وكما جاءت على لسان أربابها، التّطلّع صوب (الحداثة)، ونفض غبار الماضي الذي أثقل كاهل الأدب وإيّاهم، فكان أن ظهرت حملة واسعة النّطاق، شعارها (التّجديد)، والتي وصل شظاها إلى خارج الحدود العربيّة، واستقطبت هذه الحملة ثلّة من المروّجين للتّجديد، الذين أخذوا على عاتقهم هذه المسؤوليّة، وتجمّع هؤلاء في تكتّلات أدبيّة، وراحوا يصبّون الأدب في قوالب هي أقرب إلى التّقليد (تقليد واحتذاء النّموذج الغربي) منها إلى التّجديد، فسخّروا لها المدارس حسب المذهب الذي تبنّته كل جماعة.

وباكورة هذا التّجديد كانت مع (مدرسة الإحياء) -وكأنّ الأدب قبلها كان مواتاً-، ثمّ توالت المدارس الواحدة تتلوها الأخرى، وصولاً إلى مدرسة المهجريّين، ممثّلة في (الرّابطة القلميّة)، وهو اسم على مسمّى، ذلك أنّ هذه المدرسة هجرت الكثير من الأساليب القديمة، وحجّتهم في ذلك التّجديد الذي أصبح ضرورة من متطلّبات العصر، وعنواناً بارزاً للحداثة التي نادت بها هذه الجماعة، وحاولت ترسيخها في الفكر العربي على أنّها أحسن خيار للخروج بالأدب العربي من ضائقة التّراث الذي

حكم عليه بالجمود والتّخلّف، والذّهاب به نحو العالميّة، وكان هذا هو الهدف الذي من أجله تأسّست هذه الرّابطة كما جاءت على لسان أصحابها. فكيف ينظر روّادها إلى الحداثة الغربيّة؟ وما موقفهم من التّراث العربي؟ وما هي العوامل التي أجّجت رغبتهم في تبنّي الحداثة والانسلاخ من التّراث؟ هل حكمهم على التّراث كان عن تدقيق منهم وتمحيص؟ أم هي ثقافة التّبعيّة والتّقليد للغرب هي من دفعتهم لمثل هذا الحكم؟.

1. **الحداثة الغربيّة و أثرها في الرّابطة القلميّة :**

لقد تناول (الأدب المهجري) قضايا خطيرة في الفكر والأدب، شارك فيها أكثر من أديب وأكثر من ناقد في أكثر من قطر، وبطبيعة الحال قد أثارت هذه القضايا ردّ فعل معاكس، ولم يكن الخلاف الذي دار بين الطّرفين هيّناً على الإطلاق، بل أسفر عن مُصادمات خطيرة بلغت حدّ القذف والشّتم أحياناً، وتبادل الاتّهامات في أحايين كثيرة، ولقد كانت قضيّة تبنّي الحداثة الغربيّة وتجاوز التّراث واحدة من هذه القضايا التي دار حولها الجدل. وهكذا دخلت علينا الحداثة بوجه ظاهره فيه التّطور والبناء، وباطنه فيه الهدم والتّهشيم؛ هدم أدب ولغة، ونسف تراث عريق أدراج الرّياح، هذا ما جنت به علينا حداثة مستعارة. فالحداثة في أوسع تعريفاتها تجنح إلى التّجديد، ولكن لا يكون هذا التّجديد على حساب هدم القيّم والمبادئ ونبذ التّراث، وحتّى الغرب إنّما يفهمون الحداثة على هذا النّحو، أمّا حداثة العرب فيا للأسف فإنّ الأمر معها لا يبشّر بخير، لأنّه وبكلّ بساطة قمنا بإلغاء الذّات والهويّة، ولا أمل بعد ذلك في النّهوض، فحداثة الغرب وصل وحداثتنا قطع، وحداثتهم استمرار للتّراث «أمّا نحن في العالم العربيّ فنشترط القطيعة المعرفيّة مع تراثنا كشرط لتحقيق الحداثة والتّحديث»[1]، وهذا ما دعت إليه صراحة (الرّابطة القلميّة) النّاطق الرّسمي باسم الحداثة، فقد رأت هذه الرّابطة أنّ النّظر في التّراث تخلّف، وأنّ مجاراته قمّة التّقعر والجهالة وهذا ما جاء على لسان رئيسها (جبران خليل جبران) حين قال: «سِرْ! الوقوف جبانة، والنّظر إلى مدينة الماضي جهالة»[2]، وبطبيعة الحال فقول (جبران) فيه بعض الصّواب، ذلك أنّ الثّبات على حال والتّوقف عنده لا يُجدي نفعاً ولن يتقدّم بنا قيد أُنملة، وإنّ النّظر للماضي من أجل النّظر فقط أو التّحسر عليه فكذلك لا طائل من ورائه، ولكن النّظر إلى الماضي من أجل استثماره ومحاولة قراءته والانطلاق منه نحو القمّة والتّجديد هو الخطوة المثاليّة نحو بناء حاضر متطوّر ومزدهر، وهذا ما اعترض عليه أصحاب الفكر الحداثي الذين يرفضون وبشدّة الرّجوع إلى التّراث أيًّا كانت أسبابه، وتحت أيّ ظرف من الظّروف.

لقد كانت (الرّابطة القلميّة) أوّل من أشعل فتيل الحداثة في الفكر العربي وطوّقته بهالة من السّؤدد وجعلت منه المنفذ الوحيد الذي يجب على الأديب العربي أن يسلكه إذا ما أراد الوصول بإبداعه إلى الجودة والعالميّة، وكان هذا بشهادة أعضائها الذين أرجعوا الفضل لرابطتهم في تبني

الحداثة والتّرويج للنّهضة الأدبيّة الحديثة وبهذا الخصوص قال (ميخائيل نعيمة) وهو يتحدّث عن مجلّة (الفنون) لصاحبها نسيب عريضة -أحد روّاد (الرّابطة القلميّة)-: «إنّ (الفنون) التي كانت بمظهرها وترتيبها وتبويبها فتحاً جديداً في دنيا الصّحافة العربيّة، والتي تلاقت على صفحاتها أقلام فتية كان لهم الفضل الأكبر في خلق النّهضة الأدبيّة الحديثة»[3]، هذه النّهضة التي أُشترط في قيامها على تجاوز كلّ ما له علاقة بالقديم، والإقبال على الحداثة الغربيّة كأنجع وسيلة لنهضة الأدب العربي، ولم يكن هذا بالنسبة إليهم بالأمر السّهل، ذلك أنّهم لاقوا كثيراً من الصّعوبات -على حدّ تعبيرهم- إذ كان عليهم مواجهة الماضي وأتباعه في آن واحد معاً، هؤلاء الأتباع الذين خلقوا جواً من الماضي ليُجابه الحاضر ويعيش في زمن غير زمانه، وهذا ما صعّب من قيام النّهضة الحديثة وفي هذا قال (نعيمة): «وفي مثل ذلك الجو كان على الحركة الأدبيّة التّجديديّة أن تشقّ طريقها وقد شقّته بما يُشبه الأعجوبة... وكان انطلاق في الأدب وانعتاق، وكان شعور حي وفكر ثائر، وكان صدق واستقلال، وكانت جرأة وحماسة، وكان فن وهدف مع الإيمان بقدسيّة الأدب ورسالته»[4]، وهذا جلّ ما كان يطمح إليه هؤلاء ولم يعثروا عليه في آدابنا، أو لنقل على أصحّ تعبير لم يُفتّشوا أصلاً ولم يبحثوا في تراثهم حتى يمكنهم العثور على ما يبحثون.

واعتبرت (الرّابطة القلميّة) أنّ ثورتها على القديم وأتباعه هي من توّجت الأدب العربي بأدب راقي يسمو إلى مصاف الآداب العالميّة، أدب لا أثر فيه للقديم، هذا القديم الذي -وحسب رأيهم- هو من قعد بالأدب العربي وحال دون نموّه وتطوّره حيث قال (نعيمة): «لقد كان من ثورة (الرّابطة القلميّة) على التّقليد أن خلقت أدباً إنسانيًّا شاملاً، وخلقت شعراً لا أثر فيه للفخر والحماسة والهجاء والتّسكع في المدح، والتّفجّع الكاذب في الرّثاء. أمّا الغزل فقد أقلعت فيه عن أساليب القدامى»[5]، وهكذا حصر (نعيمة) أدب الأقدمين في هذه الأغراض ضاربا الصّفح عن كلّ ما قدّمه أولئك من درر نفيسة أصبحت فيما بعد مادّة أدبيّة ينهل منها أدباء الغرب أفكارهم، أفمن المعقول ألّا يجد هؤلاء في ثنايا تراثنا الذي هو عصارة (خمسة قرون) من العطاء أعمالا نفيسة ذات قيمة لا يُعلا عليها، فماذا يقول في حكم (زهير بن أبي سلمى) و(أبي تمّام) و(أبي العتاهية)، و(فلسفة المعرّي)؟ أوليس الأديب الإيطالي (دانتي)، والذي هام به هؤلاء، قد اقتبس فكرة (الكوميديا الإلهيّة) من (رسالة الغفران) (لأبي العلاء المعرّي)، غير أنّ استلابهم بالغرب جعلهم ينسبون إليه كل فضيلة.

ويصرّ (ميخائيل نعيمة) على أنّ الغرب هو صاحب الفضل الأكبر في نهضة الأدب العربي وحداثته، حين عرّفنا معنى الأدب ومعنى الشّعر وجعلنا نفقه أنّ الأدب أكبر ممّا كنّا نعتقد، فقال إنّه يجب: «أن نعترف ولو بفضل واحد للغرب – وهو فضل آدابه على آدابنا. ما تعوّد البعض أن يدعوه (نهضة أدبيّة) عندنا ليس سوى نفحة هبّت على بعض شعرائنا وكُتّابنا من حدائق الآداب

الغربيّة، فدبّت في مخيّلاتهم وقرائحهم كما تدبّ العافيّة في أعضاء المريض بعد إبلاله من سقم طويل... أدركنا -بفضل الغرب- أنّ نظم الشّعر ممكن في غير الغزل والنّسيب والمدح والهجاء، والوصف والرّثاء، والفخر والحماسة، لذاك أطربتنا نغمة بعض شعرائنا الحديثين الذين تجاسروا أن يتعدوا هذه الحدود المقدّسة»[6]، فالتّجديد إذاً والذي التمسه أصحاب الحداثة عندنا بالمنظور العام هو أقرب للتّقليد منه إلى التّجديد، ويمكن نعته «بالتّقليد الجديد، ونعني به تقليد الغرب»[7]، وهذه آخر صيحات الحداثة التي عوّدتنا على تزيّيف الحقائق والخلط بين المصطلحات، فالحداثيّون عزفوا عن تقليد الأسلاف واستباحوا لأنفسهم تقليد الغرب، مع أنّ كليهما تقليد، وكليهما منبوذ، فهم وفي خضمّ التّغيّير فرّوا من التّراث ليقعوا في فخّ تقليد الآخر، هذا التّقليد الذي اتّخذوه حجّة لاموا أنصار القديم عليها، متناسين أنّ هؤلاء نادوا بالمحافظة لا التّقليد، وشتّان بينهما، فالمحافظة التي أقرّها المنصفون تبقى «قانوناً طبيعيًّا وسنّة كونيّة، وهي التي تحمي الأمم من آثار الغزو الخارجيّ، وبها استطاع العرب والمسلمون الصّمود، وهي التي تحمي شخصيّات الأمم من أن تزيف أصالتها أو تمسخ ذاتيتها»[8]، ألهذا يحارب (الحداثيّون) أنصار القديم؟ فقط لأنّهم تمسّكوا بكيانهم الشّخصيّ، فالتّقليد تحقّق فعلا حينما انكبّوا على استيراد (النّظريّات الغربيّة) وأدخلوها في ثقافتنا من غير أن يستجلوا معالمها.

وليس ببعيد عن (نعيمة) نجد (جبران) الذي سلّم شارة القيادة للغرب وأقرّ بفضل آدابه على آدابنا ومدنيّته على مدنيّتنا، ورأى أنّ قيادته وأسبقيّته تفرض علينا إتّباعه وتقليده، فقال: «وأمّا الرّوح الغربيّة فهي دور من أدوار الإنسان وفصل من فصول حياته. وحياة الإنسان موكب هائل يسير دائماً إلى الأمام، ومن ذلك الغبار الذّهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكوّن اللّغات والحكومات والمذاهب، فالأمم التي تسير في مُقدّمة هذا الموكب هي المبتكرة، والمبتكر مُؤثّر، والأمم التي تمشي في مُؤخّرته هي المقلّدة، والمقلّد يتأثّر... وها قد أصبحوا هم السّابقين وأمسينا نحن اللّاحقين، فصارت مدنيّتهم بحكم الطّبع ذات تأثير عظيم في لغتنا وأفكارنا وأخلاقنا»[9]، غير أنّنا لا نرى في تقليد و(محاكاة) الأنا والآخر سوى أنّهما خطر داهم يتربّص بالأمّة من كلّ النّواحي، وما يجب تأكيده وعلى عكس ما يذهب إليه دعاة الحداثة «أنّ المحاكاة لا تفيد سواء أكانت (محاكاة للقديم) أو (محاكاة للجديد)، وإنّما الصّواب أن نأخذ بالحسن من كليهما وأن نحذر من التّقليد الأعمى حيث كان، فلا ندين بالتّقليد لأحد ولا نتجه إلى وجهة في أدبنا وفنوننا غير الوجهة التي نستقلّ بها بالرّأي والشّعور»[10]، فمدنيّة الغرب لا تعني بالضّرورة إتّباعه والتّسليم له، فللعرب تراث ضخم يُمكنه أن يكون انطلاقة لنهضتنا وحداثتنا إذا ما عرفنا كيف نستثمره، ولا يُمكن أن نُغفل أو نتغافل عن حقيقة أنّ مدنيّة الغرب هي في الأساس خلاصة تجارب (العقل العربي) الذي يخجل منه هؤلاء، وهذا بشهادة الغرب أنفسهم. فكيف نجزم أنّ تراثنا يخلو من الفائدة ونتهمه بالعجز

والقصور؟ في حين أنّ أوروبا في نهضتها استندت على هذا التّراث بدليل ما ذكرته المستشرقة (زيغريد هونكه) في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) الذي بيّنت فيه أنّ حضارة الغرب هي من صنيع التّراث العربي، والوجه الآخر للحضارة العربيّة.

ويرى (جبران) أنّ لمسة الغرب بدت واضحة في حياتنا وعاداتنا وأفكارنا، والحداثة الغربيّة طعّمتنا بمصل أعاد الحياة لآدابنا التي كانت تُحتضر وفي حكم الميّت الذي لا أمل في بقائه، وذلك من خلال الأفكار التي نفختها في روح الأدب، فخلّصته من عبوديّة الماضي الذي لا يهتمّ إلّا بالقشور -على حدّ تعبيرهم-، وزعم أنّ الغرب لم يرد بنا وبآدابنا إلّا خيراً فقال: «إنّ المحسنين الحقيقيّين وأصحاب الأريحيّة في الغرب لم يضعوا الشّوك والحسك في الخبز الذي بعثوا به إلينا، فهم بالطّبع قد حاولوا نفعنا لا الضّرر بنا»[11]، وأقرّ بتبعيّتهم المطلقة للغرب وآدابهم بما أنّهم تتلمذوا على أيديهم فقال: «فالشّاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكيّة، قد تحوّل بالفعل إلى معتمد أمريكي، والشّاب الذي تجرّع رشفة من العلم في مدرسة يسوعيّة، صار سفيراً فرنسيًّا، والشّاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسيّة أصبح مُمثلاً روسيًّا»[12]، وهذا اعتراف صريح وواضح من (جبران) على أنّ النّهضة العربيّة التي أوهمونا بها، هي الوجه الآخر للحداثة الغربيّة، ولا فرق بينهما إلّا في النّقطة التي سقطت من العين العربيّة، وهذا يعني أنّ التّجديد الذي نادوا به لم يكن نابعاً من الدّاخل، وبذلك فهو تجديد مزيّف لم تخلقه البيئة العربيّة وهذا ما يجعله يخون الطّبيعة العربيّة ولا يتلاءم مع فكرها وثقافتها.

إنّ الفكر الذي حاول هؤلاء إقحامه في آدابنا هو فكر غربيّ خالص لا غبار عليه، فلا وُجود لفكر قديم وفكر جديد في الأدب العربي، فالفكر القديم في نظرهم هو الفكر العربي، أمّا الفكر الجديد فهو الفكر الغربي المنتحل من قِبلهم، وليس كما يحسب (جبران) وصحبه حين قال: «في الشّرق اليوم فكرتان مُتصارعتان: فكرة قديمة وفكرة جديدة، أمّا الفكرة القديمة فستغلب على أمرها لأنّها منهوكة القوى محلولة العزم...وفي الشّرق اليوم رجلان: رجل الأمس ورجل الغد، فأيّ منهما أنت أيّها الشّرق... ألا فاسأل نفسك، استوجبها في سكينة اللّيل وقد صحت من مخدرات محيطها عمّا إذا كنت من عبيد الأمس، أم من أحرار الغد»[13]، ولكن أليس من الأفضل أن نكون عبيد الأمس الذي يُمثّل هويّتنا وتاريخنا، على أن نكون من عبيد الحاضر والغد الذي يتحكّم فيه الغرب؟ ثمّ واصل (جبران) استفساراته، بتوجيهها هذه المرّة للكُتّاب والشّعراء عمّا إذا كانوا من أنصار الفكر الجديد أو أنصار الفكر القديم ناعتاً هؤلاء (المحافظون) بالرّجعيّة والتّخلّف، وأولئك (المجدّدون) بالعصريّة والتّقدّم، وفي هذا يقول: «أكاتب بحّاثة يشمخ برأسه إلى ما فوق رؤوسنا، أمّا ما في داخل رأسه فيدبّ في هوة الماضي الغابر، حيث ألقت الأجيال ما رثّ من أثوابها ورمت ما لم يعد صالحاً لها، أم فكرة صافية تتفحّص مُحيطها لتعلم ما ينفعه وما يضرّه، فتصرف

العمر في بناء النّافع وهدم الضّار؟ إن كنت الأوّل فأنت سخافة مُطرّسة وبلادة مزركشة، وإن كنت الثّاني فأنت خبز للجائعين وماء للظّامئين...أشاعر أنت يضرب الطّنبور أمام أبواب الأمراء، وينثر الأزهار في الأعراس، ويسير وراء الجثث الهامدة وبين فكّيه إسفنجة مُثقلة بالماء الفاتر حتّى إذا ما بلغ المقبرة ضغط عليها بلسانه وشفتيه. أم موهوب وضع الله في يده قيثارة يستولدها أنغاماً علويّة تجذب قلوبنا وتوقفنا متهيّبين أمام الحياة وما في الحياة من الجمال والهول؟ إن كنت الأوّل فأنت من المشعوذين الذين لا ينبّهون في نفوسنا سوى عكس ما يقصدون، فإن تباكوا نضحك، وإن مرحوا نكتئب، وإن كنت الثّاني فأنت بصيرة مُشعشعة وراء بصرنا، وشوق عذب في قلوبنا، ورئياً ربّانيّة في غيبوبتنا»[14]، هكذا ينظر أصحاب (الفكر الحداثي) للقديم وأتباعه فعواطفهم متحجّرة ومصطنعة، وفكرهم معدوم آسن، ولكن ما الذي يُميّز أدب الحداثة الذي هام به هؤلاء وثاروا لأجله على التّراث الأدبي الضّخم؟ سوى أنّه مطبوع بطابع الغرب الذي فُتنوا به.

إنّ أدب الحداثة عُدَّ أدب شكّ واستسلام وتخاذل وهروب من الواقع، صرف الشّباب العربي عن واقعهم، وأقحمهم في متاهات السّرياليّة، ففي الوقت الذي كان ينبغي فيه أن تكون الكلمة نبراساً هاديّاً لأمّة تعيش المآسي، أصبحت دماراً شاملاً للأمّة وقيمها ومعتقداتها، ففي تلك الفترة كانت الأمّة في أمسّ الحاجة إلى شعراء يرفعون من روحها، ويُبصّرونها بكلّ القيم الشّريفة ويَشحذون هممها، ويحرّضون على الاستقلال، لا شعراء يهربون من الواقع إلى متاهات الفوضى واللاّمعقول واللانهزاميّة والتي ورثها هؤلاء من الأدب الغربي[15]، ولا تنطبق بتاتاً مع واقعنا وأفكارنا، لذلك كانت مضامينهم فارغة من أيّ محتوى، وادّعاؤهم بجدّة أفكارهم جعل (الرّافعي) يستفسر عن هذا الجديد، فقال: «ثمّ أيّها الملأ أفتوني ما هو هذا الجديد؟ أهو ذلك الخيال الشّارد المجنون، أم تلك الشّهوات المتوثبة المتلهّفة، أم ذلك الأسلوب الفجّ المستوخم، أم العامّية السّقيمة الملحونة، أم هو في الحقيقة بين رغبة في النّبوغ قبل أن تتمّ الأداة ويستحكم الطّريقة، كما هو شأن فريق من الكتاب، فيختصرون الطّريقة بكلمة واحدة هي المذهب الجديد، وبين رغبة في التّعصّب للآداب الأجنبيّة»[16]، وفي الحقيقة «ليس هناك سوى جديد الغرب في مواجهة قديم الشّرق»[17]، هذه هي حقيقة التّجديد الذي أوهمنا به هؤلاء، وهذا هو أدب الحداثة الذي روّج له أنصاره، وهذه هي الحداثة عند أصحاب (الرّابطة القلميّة).

2. موقف الرّابطة القلميّة من التّراث:

كان أمام (طالبيّ التّجديد) وشعراء (الرّابطة القلميّة) منهل غزير ليغترفوا منه، ولكنّهم كعادتهم فضّلوا الجاهز من أساليب الغرب وآدابهم ومناهجهم على أن يطوّروا من تراثهم، فدخل معهم الأدب العربيّ في معترك كبير كان سببه الأوّل تهميش التّراث والتّنازل عنه لصالح المناهج الغربيّة دون ما اعتبار لطبيعة كلّ من البيئتين الأدبيّة، وأصبح التّراث معضلة والخلاص بيد

الحداثة الغربيّة، فانكبّوا عليها بالنّقل والتّقليد فوقعنا في أزمة وذلك «بسبب سوء النّقل والغموض من ناحيّة، وفشلهم في إدراك خصوصيّة الثّقافة العربيّة من ناحية ثانية، انتهوا إلى تكريس ثنائيّة أو ازدواجيّة الثّقافة العربيّة، وتعميق الشّرخ بدلا من رأب الصّدع»[18]، ثمّ إنّ هذه الخصوصيّة نستمدّها من ماضينا وتاريخنا، غير «أنّ الأمّة العربيّة من أقلّ الأمم احتفالا بحضور هذا الماضي، لأنّها تشمله في الغالب بإهمال وقلّة مبالاة»[19]، (فالخمسة قرون) السّالفات كان فيها أدبنا العربيّ يزخر بكمّ هائل من النّظريّات الأدبيّة واللّغويّة والنّقديّة، وهي بطبيعة الحال ليست بأقلّ من نظيراتها التي تواجدت بأوروبا في القرنين (التّاسع عشر) و(العشرين)، فلو أخذ هؤلاء على عاتقهم مسؤوليّة قراءة التّراث وغربلته، لتمكّنوا حتما من تطوير تلك النّظريّات بدلا من الاشتغال بتقليد منجزات الغرب[20].

لقد كانت (الرّابطة القلميّة) تنظر إلى التّراث والأدب العربي وأدبائه وأتباعه نظرة استصغار واحتقار، ومنها نتج موقفهم عن كلّ ما له علاقة بالقديم، والذي تلخّص في الرّفض المطلق لكلّ ما حواه التّراث من أفكار وأساليب وآداب وفنون، لأنّها في نظرهم ترّهات وخرافات لا يُمكنها أن تصمد أمام هذا الجديد الوافد الذي علّمهم معنى الحياة ومعنى الأدب، وفي هذا الصّدد قال (ميخائيل نعيمة) إنّ قيمة: «الحياة في اكتشاف الجديد واختبار ما لا يزال مجهولاً، والإقدام على كلّ ما تشتمّ من ورائه رائحة الحقيقة. الحياة في الانتقاد والتّجدّد»[21]، وهذه النّظريّة هي من جعلتهم يتجاوزون التّراث ويحكمون عليه بالقصور، وتنبّأ (جبران) بزوال أسطورة الماضي ورجالاته لعدم قدرتهم على مجابهة الحاضر وأبنائه المتشبّعين بالفكر والرّوح الغربيّة فقال عن ذلك: «أقول لك إنّ أبناء الأمس يمشون في جنازة العهد الذي أوجدهم وأوجدوه، أقول إنّهم يشدّون بحبل أوهت الأيّام خيوطه، فإذا ما انقطع -وعمّا قريب ينقطع- هبط من تعلّق به إلى حفرة النّسيان، أقول إنّهم يسكنون منازل مُتداعية الأركان، فإذا همّت العاصفة -وهي على وشك الهبوب- انهدمت تلك المنازل على رؤوسهم وكانت لهم قبوراً، أقول إنّ أفكارهم وأقوالهم ومنازعهم وتصانيفهم ودواوينهم وكلّ مآتيهم ليست سوى قيود تجرّهم بثقلها ولا يستطيعون جرّها لضعفهم»[22]، ففي زمن الحداثة «أصبح الشّعر قميصا رخيصا معلّقا على طرف السّوق يحقّ لأيّ متدرّب أو متدرّبة أن يلبسه بعد أن يدفع ثمنه كتابا سيّئا، أنيق الغلاف باذخ الطّباعة موشوما بصفة شعر على الغلاف»[23]، ذلك أنّ ما قدّموه لنا من كتابات حتّى الآن جلّها يكتنفها الغموض المبالغ فيه، والتّعقيد في الجمل والإغراب في تركيبها، فضلا عن الفساد اللّغوي، والإكثار من المصطلحات والتي لا تمتُّ للطّبيعة العربيّة بصلة[24]، أهذا هو الأدب الذي يرتضيه لنا هؤلاء؟ بل ويُقارنون بينه وبين آدابنا الأصيلة التي تحمل اللّمسة العربيّة الأصيلة! فعجباً لهم وممّا يفترون.

وزعموا أنّ دولة الماضي لا يُمكنها البتّة أن تثبت أمام دولة الحاضر، فتلك دولة كان فيها الشّعر صناعة، وهذه دولة لبس فيها الشّعر الفكر وتجمّل به ليبلغا معاً مجد الحقيقة وصدق العاطفة، وهذا هو تماماً الجوهر الذي افتقدته مدينة الماضي، فقال (نعيمة) بخصوصها: «إنّ الدّولة التي حاولوا تجديد شبابها قد آذنت شمسها بالمغيب، وأنّ الشّعر فن يقوم على أكثر من جزالة وفخامة ومتانة ورنّة قافيّة، وأكثر من غنى لغوي وأمانة لكلّ ما تنهى به وعنه قواعد اللّغة وعلم العروض، وأكثر من نسيب وتشبيب ونوح ورثاء ومدح وهجاء وفخر وحماسة وحكمة وسياسة»[25]، وعلى ما يقوم إذاً؟ أوليس هذه هي إحدى دعائم الشّعر التي لا يقوم إلّا بها؟ وهي القواعد التي يقوم عليها أساساً، وادّعاؤهم بأنّ الشّعر الحديث أفكار، فهذا يستدعي الدّهشة والغرابة! لأنّنا لا نتصوّر الشّعر بدون أفكار، والشّعر القديم كلّه أفكار، ثمّ إنّ كلّ ذلك الصّخب الذي صاحب موجة الحداثة لم يكن إلّا من أجل إلغاء القيود المترتبة على الأدب وبخاصة الشّعر العربيّ، هكذا قالها صراحة من تبنّى الحداثة، فتعالت الأصوات الدّاعيّة إلى هدم قواعد الفنون بما فيها الأدب لاسيما الشّعر الذي كان من ضحايا الحداثة، وطبعا هذه الدّعوة لم تخرج سوى من أفواه «العاجزين عن التّعبير الفنّيّ بقواعده الأصليّة، وحينا آخر من جانب المتواطئين على الهدم والمتعلّلين له كلّ يوم من وراء السّتار بعلّة جديدة»[26]، ولا نظنّ هؤلاء يعلمون شيئا عن المثل الفرنسيّ القائل: (لا يحيا الفنّ بغير القيود)، فلولا القيود لنال كلّ منّا نصيبه من الشّعر، وهي التي من خلالها تبرز عبقريّة الشّاعر وموهبته، وكذا عمق تكوينه الفنيّ، فلا نتصور أبدا شعرا بلا قيود، ومن قال بذلك فهو لا يستحقّ أن يكون شاعرا بحقّ، لأنّ القيود لا تعوق من كان حقّا يمتلك موهبة نظم الشّعر[27].

وتبقى مسألة التّحجّج بالأفكار مجرّد ذر للرّماد في العيون من أجل تبرير دعوتهم لتبنّي الحداثة الغربيّة وتجاوز التّراث، لأنّه لا وجود لإبداع بدون أفكار، فالأفكار أساس كلّ إبداع، وتراثنا الأدبي يزخر بعديد الأفكار والتي قلنا فيها أنّها كانت انطلاقة لإبداع أدباء غربيّين، غير أنّ (نعيمة) ينفي إطلاقا وجود أفكار جديرة بالذّكر في آدابنا القديمة فقال: «أيّ فكر جديد أودعه العقل العربي منذ (خمسمائة سنة) في خزانة الآداب العموميّة فتداولته الألسن، وسهرت فوقه العقول؟... أيّ اسم يقدر أن يُضيفه العالم العربي بأسره إلى أسماء قوّاد الإنسانيّة في أيّ ميدان كان من ميادين هذا البقاء؟»[28] ويعلم (نعيمة) جيّداً أنّ كلامه هذا لن يروق العربي الأصيل، غير أنّ نعيمة يرى بعين المنبهر بالغرب وإنجازاته فقال: «أسمع أصواتاً تُنادي، وأرى أيديًّا تمتدّ نحوي وألسنة تصبّ عليّ النّقم والكلّ يقول: هل نسيت أو أنت جاهل أسماء (امرئ القيس) و(النّابغة الذّبياني) و(لبيد) و(علقمة الفحل) و(عنترة) و(المهلهل) و(المتنبّي) و(الهمداني) و(الأخطل) و(جرير) و(ابن رشد) و(ابن سينا) إلخ من الأقدمين، و(شوقي) و(حافظ) و(المطران) وكثير سواهم من المحدثين؟... كلّا يا سادتي أنا لم أنس هؤلاء كلّهم، بل لا أتجاسر أن أزعج سكينة قبور الرّاقدين منهم ولا أن أرفع

عينيّ الخاطئتين إلى أكاليل الغار وأهلّة النّور فوق رؤوس الباقين في القيد الحياة، إنّما أهمس لهم همساً كي لا نثير غضبهم. إنّ غثّهم أكثر من سمينهم، فدعوهم يفرّقوا أنفسهم بأنفسهم وعلى كلّ لا أظنّكم ظالمين إلى حدّ أن ترفعوا أحداً منهم إلى مصاف (هوميروس) و(فرجيل) و(دانت) و(شكسبير) و(ملتون) و(بيرُن) و(هيكو) و(زولا) و(غوتي) و(هينه) و(تولستوي)، أولئك عاشوا وماتوا ليتغزّلوا بظباء الفلاة ولمعان المشرفيات ووقع سنابك الخيل، وسفك الدّماء ومشي الإبل وأطلال المنازل ونار القرى إلخ... أمّا الآخرون فقد اختارتهم السّماء أصفياءها وأسكنتهم الأولمب... هؤلاء شموع موقدة في دياجير العالم لتهدي العالم إلى النّور. هؤلاء أجنحة تطير بالإنسانيّة إلى حيث الجمال والكمال والمحبّة... هؤلاء معلمو الإنسانيّة وقُوّادها، دعوهم في أعاليهم فنحن قاصرون عن إدراكهم بأيد أثقلتها سلاسل القيود، وعيون امتصّت الظّلمة ماءها وعقول لم تتحرّر بعد من أوهام الماضي وأشباحه وغرور المستقبل لتدرك حاضرها»[29]، من المؤسف أن يكون هذا رأي عربي في تراثه، ثمّ من يكون هؤلاء وبما امتاز أدبهم حتّى استلب به أعضاء (الرّابطة القلميّة)، أليس أدبهم كلّه أساطير وثنيّة وخرافات مسيحيّة، وهي الأفكار نفسها التي أراد شعراء (الرّابطة القلميّة) ترسيخها في الفكر العربي، فهذه الأفكار التي كان يُردّدها (نعيمة) و(جبران) «مُعَارِضَة مُعَارَضَةَ أساسيّة لكلّ مفاهيم الفكر العربي والأدب العربي الذي لا يقبل ذلك المفهوم الوثني البُرهمي المجوسي... ومن هنا يبدو خطر هذه الآراء على مسيرتنا الفكريّة والاجتماعية، ويبدو تباينها العميق مع القيم التي قام على أساسها الأدب العربي، واختلافها مع المزاج والقيم والعقائد والجزاء والمسؤوليّة الفرديّة»[30]، فماذا عساها تنفعنا هذه الأفكار؟

ثمّ إنّ (نعيمة) لم يكتف بنفي الأفكار من الأدب العربي القديم، بل ونفى إطلاقاً أن يكون لدينا كتّاباً وشعراءً يرقون إلى مصافّ أدباء الغرب الذين عدّدهم سابقاً فقال: «من هو أشهر كُتّابنا... هناك فئة من الشّبان بدت على وجوههم الحيرة وأشكل عليهم الجواب، فهم يجولون بعقولهم مثلي ويُفتّشون بين طيّات الماضي وصفحات الحاضر فلا يرون بقعة خضراء تستوقف النّظر، حياة قاحلة يابسة جرداء»[31]، وأن لا يعثر (نعيمة) على أديب واحد على الأقل في كلّ تراثنا يفخر به فهذا أمر في غاية العجب ولا يقبله عقل عاقلٍ! فلماذا يفخر (بدانتي) و(كوميديته الإلهيّة)، ولا يفخر (بأبي العلاء المعري) في (رسالة الغفران) وتلك من هذه؟ فعجباً قوله وعجباً موقفه المتزمّت هذا. وما جعله يُجرّد كُتّابنا من أدبيّتهم هو افتقارهم موهبة الإدراك حيث قال: «الكاتب الذي يرى بعيني قلبه ما لا يراه كلّ بشر، الكاتب الذي أعطته الطبيعة موهبة إدراك الحقّ قبل سواه، هذا الكاتب هو جلّ ما نبحث عنه بين طيّات السّنين الخوالي فلا نرى له أثراً ونحملق بأبصارنا في حياتنا الحاضرة علّنا نراه فلا نراه»[32]، وعلى (نعيمة) حتى يرى ما يبحث عنه هو أوّلا أن يُزيل نظّارة الانبهار بالغرب ويرتدي نظّارة الحقّ حتّى يتمكّن حقيقة من رؤية قادة العرب والعالم بأسره. ودائما يلجأ

(نعيمة) إلى مقارنة أدباء الغرب بأدبائنا فنلفيه يتساءل إن كان لنا أديباً من زمرة هؤلاء فقال: «أفقراء نحن أم أغنياء؟ أعندنا (هوميروس) و(شكسبير) و(موليير) و(راسين) و(تولستوي)؟ حلّفتكم أن تُخلصوا لي الجواب فلا تدعوا ألسنتكم تنطق بما لا تشعر به قلوبكم، ولا تُمليه ضمائركم، ولا مناص لكم من مقابلة الحقيقة إن عاجلاً وإن آجلاً»[33]، والحقيقة الوحيدة التي يرفض نعيمة الاعتراف بها هي أنّه لدينا أدباء يُضاهون هؤلاء وحتّى يفوقونهم.

ثمّ يُواصل (نُعَيمَه) فيقول: «إذا أحببتم أن يكون لكم (شكسبير) أو (غوتي) أو (موليير) منكم وفيكم فأعدّوا لهم الطّريق، ونظّفوا هياكلكم من الأصنام الخشبيّة التي تحرقون أمامها بخوركم الآن، امحوا أساسات تلك المذابح الدّمويّة»[34]،لا هياكل عندنا يا (نعيمة) ونحن لا ندين إلّا بالعروبة وإذا أردنا التّجديد فعلينا أوّلاً أن ننطلق من ميراثنا الضخم لننفتح بعدها على الآخر من غير استلاب به، نحن لا نرفض التّجديد إذا ما تمسّك برداء الأصالة، فالجديد لم يكن أبدا ندّا للقديم، ولا «يقطع الصّلة نهائيا بالقديم وإن جدّد من قيمه ومعالمه، ولم يكن للجديد أن يتولّد بدون القديم»[35]، وكما يرى (عبد الرحمن شكري) أنّ «التّجديد مشروط بفهم الماضي والوعي بموضوعيّة ما يمثّله التّراث من حلقات حضاريّة وإبداعيّة إنسانية بالأساس»[36]. فالمجدّد الحقّ لا يجدّد ليهدم، ولا يشيّد بناء بلا أساس، وهذا ما توجّه به الشّاعر (رفيق معلوف) في حواره مع (مجلّة العربيّ) حينما قال: «للبناية أسسها ولا تشاد على رمال، على الشّاعر أن يقرأ التّراث بجاهليّه وإسلاميّه وعبّاسيّه، بصوفيّه ونهضويّه ليستطيع أن يتقدّم ويتجاوز ما كان. لا جديد إلّا على أساس القديم، ولا أطلب بذلك أن يكون الشّاعر مقلّدا أو ممسوخ الشّخصيّة، ما أريده فاعليّة الحديث المتّصل بالجذور»[37]، ولا نريد أن يكون لنا أدباً هو نسخة طبق الأصل عن أدبهم لأنّ لكلّ أدب بيئته ولغته وطبيعته، ولا نبتغي أدباء من شاكلة هؤلاء لأنّ ما لدينا حتّى الآن يكفينا، والأديب الذي يكتب بفكر غيره الأجدر به ألّا يكتب.

وهكذا أصبح التّراث الأدبي العربي بعيداً كلّ البعد عن أعضاء (الرّابطة القلميّة) تماماً بقدر بعدهم المكاني عن معاقل العروبة، وكلّ ذلك التّراث الضّخم ظلّ مجهولاً عندهم، فقد أقصت هذه الجماعة التّراث من حساباتها، ولم تجعله من المناهل التي نهلت منها معارفها، رغم أنّه من المناهل البالغة الأهميّة لثقافة أيّ شاعر عربي، غير أنّ أدباء (الرّابطة القلميّة) انتجعوا الأدب الغربي وثقافته كأهمّ منهل لهم[38]، لأنّه يُمثّل لهم الحلقة الأقوى، والمنهج المتطوّر، وما سواه ليس إلّا رفاتاً سوف تذروه الرّيّاح.

3. العوامل التي أدّت بالرّابطة القلميّة إلى تبنّي الحداثة وتجاوز التّراث:

إنّ موقف (الرّابطة القلميّة) اتّجاه التّراث والحداثة لم يُخلق هكذا صدفة، بل عملت على خلقه جملة من الأسباب التي دفعت بهم نحو تكوين فكرة حول هذين القطبين المتناحرين،

وجعلتهم في نهاية المطاف يُرجّحون كفّة الحداثة على حساب تراثهم الأدبي ومن هذه الأسباب التي ساقتهم نحو الحداثة والانسلاخ من التّراث نجد:

_ إنّ ديانة أعضاء الرّابطة المسيحيّة كانت السّبب الأوّل والأكبر والمباشر الذي حدا بهذه الجماعة إلى تبنّي الفكر الحداثي الغربي، هذا الفكر الذي كان منطلقه الأوّل هو الدّين المسيحي حيث كان له تأثير كبير عليهم، ليس لأنّه منطلق ثورتهم على اللّغة والتّراث العربي وحسب، بل لأنّه أصبح يُشكّل موضوعاً خصباً لأعمالهم الشّعرية والنّثرية على حدّ سواء، فبفضلهم عمّ (الشّعر الدّيني)، وأخبار الرّسل والأنبياء، والقدّيسين، وأخذوا يستمدّون من التّوراة والإنجيل وموضوعاتهم[39]، واعتبروا أنّ الدّين أضفى على أعمالهم براءة متناهية، وقوّة لهم يعهدوها في الأدب العربي، ولا مثيل لها في كلّ التّراث الأدبي العربي.

_ إنّ عالمنا الدّاخلي وعالمنا الخارجي، يُحدّدان نظرتنا إلى الأشياء، ويُؤسّسان لأفكارنا حول كلّ ما يُحيط بنا، ويتّحدان في خلق آرائنا إمّا سلباً أو إيجاباً على قدر استجابتنا، لذلك يُمكن أن نرجع رغبة شعراء (الرّابطة القلميّة) في تبنّي الحداثة وتجاوز التّراث لمزاجيّتهم، أو لشيء وَقَرَ في نفوسهم، إضافة إلى واقعهم الاجتماعي الذي أحاط بهم، سواء في وطنهم أو في دار هجرتهم، حيث لاحظوا فيه أموراً عدّة تعايشوا معها، جعلتهم يشعرون بحالة من الهزيمة النّفسية قتلت فيهم الوطنيّة، وجعلتهم يُقلّلون من شأن الذّات العربيّة، وبالمقابل شدّتهم نحو الطّرف الآخر، فانبهروا به وبكلّ ما فيه، انطلاقاً من نمط الحياة، وصولاً إلى الأدب، وهو ما أدّى بهم إلى هجر التّراث الذي اعتبروه سبباً في هذا التّخلف، والتّحوّل عنه إلى الحداثة الغربيّة[40]، لأنّ في الأولى (أي التّراث) تخلّف وانحطاط، وفي الثّانيّة (أي الحداثة الغربيّة)، تكمن الحضارة.

_ ثمّ إنّ هذا الشّعور بالانهزاميّة، صحبه في الوقت نفسه شعوراً بالمعاناة والفقد والاغتراب، وهذا ما انعكس بوضوح في أشعارهم، إن على مستوى اللّغة، أو على مستوى الأسلوب، أو حتّى على مستوى الإيقاع[41]، فالضّغط النّفسي الذي عانوا منه أربك كيانهم، وأدخلهم في حالة اللّاوعي، يقذفون بسهام الاتّهامات في قلب التّراث، وهذه الضّغوط ولّدت لديهم شعوراً نفسيًّا أعمق من سابقيه، ألا وهو ضعف إدراكهم لكيانهم العربي، الذي ضعّف بدوره رغبتهم في الحفاظ عليه، وتنميّته والدّفاع عنه، وهذا الموقف لم ينبعث من اعتقادهم بعجز التّراث العربيّ، بقدر ما هو استسلام بلغ حدّ الانصهار في الحضارة الغربيّة[42]، وهذا الضّعف نجم بالدّرجة الأولى من شعورهم بالنّقص اتّجاه الدّول الغربيّة التي بلغت القمّة بتجاوزهم لكلّ شيء، والشّعور هذا عملت على زرعه فيهم تلك البعثات والإرساليّات التّبشيريّة الأجنبيّة المختلفة الأجناس التي زرعها الغرب في قلب الوطن العربي، ودسّ فيها سمومه المميتة، حيث تسلّلت وتغلغلت في عمق الوجود الفكري للأمّة العربيّة، وألقت في روع شعوبها أنّ فكرة الشّرقية العربيّة بلغتها سمة التّخلف والانحطاط، وأنّ

المحافظة على هذا التّراث هو قمّة التّحجّر والجمود[43]، وأنّ الغرب بما هو عليه اليوم كان نتيجة التّغيير الذي قاموا به على مستوى الأدب، فالأدب كلّما تغيّر، تغيّر معه الواقع الحضاري لأيّ أمّة.

_ تقبّل كلّ وافد «من الأفكار الغربيّة والانسياق في تيّارها لشدّة التصاقهم بلغات الغرب وآدابهم، منذ أن كانوا في بلادهم تعلّموها على يد مدارس التّبشير والإرساليّات في وطنهم، ووضعهم في المهجر كغرباء يحسّون الفقد للحامي والعاصم ضدّ قوى التّغيير العاصفة في الغرب»[44]، أو ربّما استسلموا لها لفقد السّند النّفسي والعاطفي لديهم والذي دفع بهم «إلى روح الاستجابة للتّطوير، كما أفقدهم القدرة على المقاومة»[45]، وقضى على الانتماء بداخلهم، وأطفأ لهيب الحبّ لهذا التّراث العريق في قلوبهم.

_ ويبدو «أنّ الدّوافع الذّاتية والنّفسية لدى الشّاعر المهجري في التّجديد من موهبة فطريّة، واجتهاد وتأمّل عميق، وروح مغامرة، وحبّ التّطلع والفضول، ومحاكاة الآخر، والسّير في مجراه»[46]، وهذا ما يُبيّن أنّ هؤلاء كانوا مُهيّئين نفسيًّا لذلك، وسمحوا لكلّ هذه الأحداث أن تُحدِث شرخاً عميقاً في نفوسهم بوعي منهم واختيار أو عن غير وعي، وهكذا يتبيّن أنّ العالم النّفسي بخباياه، قد يكون له تأثير عميق على حياة بعضهم، ويسلك بهم مسالك قد تبتعد عن المنطقيّة، وتجعلهم يتوهّمون بالإصلاح من حيث أنّهم يهدمون، ولا يُفرّقون بين ما هو صواب وما هو خطأ، المهمّ أن يُلبّوا حاجات النّفس التي لا تخضع للعقل في قراراتها المتسرّعة، فدعوة (الرّابطة القلميّة) إلى تجاوز التّراث، وتبنّي الحداثة «إنّما هو زيغ الطّبع، وجنون الفكر، وانقلاب النّفس عكساً على نشأتها، حتّى صارت علوم الأعاجم فيهم كالدّم النّازل إليهم من آبائهم وأجدادهم»[47]، فالنّفس تجري على هوى ما تطبّعت عليه، فيلتحم الإرادي بلّا إرادي، فتتشكّل انطباعاتنا حول الأمور.

_ هذا كان عن عالمهم الدّاخلي الذي يموج بشتّى الاضطرابات، أمّا عن عالمهم الخارجي الاجتماعي، فهو الآخر لعب دوره في دعوة (الرّابطة القلميّة) إلى تبنّي الحداثة وتجاوز التّراث، وأولى هذه الظّروف الاجتماعيّة القاهرة التي عانوا منها كانت في بلدهم الأمّ مُمثّلة في الظّلم الذي مارسه الأتراك -العثمانيّون- عليهم، ولعلّ أقصى أنواع الظّلم هو ذلك الذي حرم هؤلاء التّعليم[48]، ولأنّ الظّلم زاد عن حدّه، ممّا لا يُمكن تحمّله، فقد انتقل أعضاءها مع من هاجروا إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة، فعاشوا في جوّ اجتماعي جديد، وإن لم يجدوا فيه العدل الذي قصدوا البلاد لأجله، إلّا أنّهم تنفّسوا هناك عبير الحريّة التي امتلأت بها نفوسهم، فراحوا يُعبّرون عمّا عجزوا أن يقولوه وهم في بلدانهم، ومن ثمّة كانت الانطلاقة التّجديديّة[49]، كما لا يمكن أن نغفل دور المجتمع الغربي الثّائر الذي أثّر كثيراً على هؤلاء الذين عشقوا الرّوح الثّائرة التي تحلّى بها الغرب، لاسيما المجتمع الفرنسيّ الذي يُعدّ مثالاً للثّورات، وكان (جبران) قد عاش في هذا المجتمع، فأخذ عنه الكثير[50].

_ استفادتهم من هذه الآداب الغربيّة وهي في عزّ أوجّها[51]، وهذا الخليط من الثّقافات يبدو أنّه أخلط حساباتهم، «فأصابهم تصدّع ثقافيّ إثر تفاوت البيئات الفكريّة والتّعليميّة التي نشؤوا فيها، وتلقوا زادهم العقلي والوجداني»[52]، وهكذا يبدو أنّ تثقّفهم بالأدب الغربي والأمريكي على وجه الخصوص هو الدّافع الحقيقي لهذا التّحرّر، ومن ورائه يكمن موقفهم من تراثنا وأدبنا.

4. خاتمة:

وفي الأخير لابدّ من الاعتراف بأنّ الحداثة التي فرضتها علينا جماعة (الرّابطة القلميّة) بلاء تسلّط على أدبنا العربيّ، واستنزفت كلّ ما هو أصيل فيه وأدخلته عالم الصّراع، يعني أنّ الحداثة أخذت منّا أكثر ممّا أعطتنا، وجعلت أدبنا يتخبّط في متاهات، وحكم عليه بعدها بالاغتراب وهو في بيئته.

_ إنّ التّراث هو بطاقة تعريف بكلّ أمّة حيّة لها ماضيها العريق، وضياعه يعني ضياع الهويّة والشّخصيّة معا، والانصهار مع جنسيّات أخرى، وهذا هو المبتغى فقد استهدفت الحداثة تراثنا وطعنت فيه لأجل هذه الغاية.

_ إنّ احتقار التّراث والانسلاخ منه هو نتيجة حتميّة لذلك الغزو الفكري -سليل الغزو السّياسي- الذي كبّلنا به الغرب، وأقنعنا بفكرة أنّنا العرب دونهم في الفكر والعلوم والآداب والحضارة، وأنّ تراثنا خال من أي معرفة وهو لا يتماشى والحياة الفكريّة الجديدة، وهو سبب كلّ مشاكلنا وتخلّفنا، وهي الكذبة التي خلقها الغرب وصدّقها العربي.

_ إنّ كلّ ما جاءت به الرّابطة القلميّة من أفكار وكلّ ما أدخلته من نظريّات، لا تلائم طبيعة أدبنا العربي، ولا تتماشى مع خصوصيّة ثقافتنا، مما اضطرّ أدبنا لمجاراة طبيعة أخرى غير التي نشأ وترعرع فيها، وهذا ما تهاوى بالأدب العربيّ.

_ الشّعر رسالة والشّعراء حاملوها، ولا مكان لشعراء فارّون هاربون من واقعهم لا لشيء إلّا لأنّهم اعتنقوا مذاهب رأوا فيها شعرا جديدا يمكّنهم من ولوج عالمه بلا موهبة.

5. الهوامش:

[1]: عبد العزيز حمّودة، المرايا المقعّرة (نحو نظريّة نقديّة عربيّة) ، دار المعرفة للنّشر والتّوزيع، الكويت، د.ط، 1422هـ/2001، ص195.

[2]: جبران خليل جبران، دمعة وابتسامة، دار العرب للبستاني، القاهرة، مصر، ط1، 1991، ص 79.

[3]: ميخائيل نعيمة، الغربال الجديد (مقالات ورسائل نقديّة)، مؤسّسة نوفل، بيروت، لبنان، ط2، 1978، ص97-98.

[4]: المصدر نفسه، ص 93- 94

[5]: المصدر نفسه، ص 95

[6]: ميخائيل نعيمة، الغربال، مؤسّسة نوفل، بيروت، لبنان، ط15، 1991، ص 29- 30

[7]: محمّد حسين الأعرجي، الصّراع بين القديم والجديد في الشّعر العربيّ،دار عصمي للنّشر والتّوزيع القاهرة، مصر،د.ط، د.ت، ص36.

[8]: أنور الجنديّ، مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، الشّركة المصريّة للطّباعة والنّشر القاهرة، مصر، العدد51، 1972م، ص101.

[9]: جبران خليل جبران، البدائع والطّرائف، المكتبة الثّقافيّة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص 84

[10]: عبّاس محمود العقّاد، دراسات في المذاهب الأدبيّة والاجتماعيّة، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر،ط1، 2012، ص18.

[11]: جبران خليل جبران، البدائع والطّرائف، ص 88

[12]: المصدر نفسه، ص 87

[13]: المصدر نفسه، ص 101- 104

[14]: المصدر نفسه، ص 103- 104

[15]: ينظر: عبد المنعم خفاجي، الأدب العربي الحديث ومدارسه، ج2، مكتبة الأزهر للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، دط، د.ت، ص 273.

[16]: مصطفى صادق الرّافعي، وحي القلم، ج3، دار الكتب العلميّة للنّشر، بيروت، لبنان، ط2، 2012، ص 315.

[17]: محمّد الكتاني، الصّراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، ج2، دار الثّقافة للطّباعة والنّشر، دار البيضاء: المغرب،ط1، 1403ه/ 1982، ص 610

[18]: عبد العزيز حمّودة، المرايا المقعّرة (نحو نظريّة نقديّة عربيّة)، ص 488- 489

[19]: إحسان عبّاس، اتّجاهات الشّعر العربيّ المعاصر، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، ط1، 1978، ص 111

[20]: ينظر: عبد العزيز حمّودة، المرايا المقعّرة (نحو نظريّة نقديّة عربيّة)، ص 194

[21]: ميخائيل نعيمة، الغربال، ص 42

[22]: جبران خليل جبران، البدائع والطّرائف، ص 104- 105

[23]: محمّد علاء الدّين عبد المولى، وهم الحداثة (مفهومات قصيدة النّثر نموذجا)، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2006، ص21.

[24]: ينظر: محمّد حسين الأعرجيّ، الصّراع بين القديم والجديد في الشّعر العربيّ، ص114.

[25]: ميخائيل نعيمة، الغربال الجديد، ص 53- 54

[26]: عبّاس محمود العقّاد، دراسات في المذاهب الأدبيّة والاجتماعيّة، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، 2012، ص10.

[27]: ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي، الأدب العربيّ الحديث ومدارسه، ج2، د.ط، مكتبة الأزهر للنّشر والتّوزيع القاهرة، مصر،د.ت، ص155.

[28]: ميخائيل نعيمة، الغربال، ص 47

[29]: المصدر نفسه، ص 47- 49

[30]: أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريّات النّقد الأدبي الحديث، ص 229.

[31]: ميخائيل نعيمة، الغربال، ص 43

[32]: المصدر نفسه، ص 50

[33]: المصدر نفسه، ص 55

[34]: المصدر نفسه، ص 64

[35]: محمّد غنيمي هلال، قضايا معاصرة في الأدب والنّقد، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر الفجالة، مصر، د.ط، د.ت، ص42.

[36]: حسن خضر، عبد الرّحمن شكري انفتاح مبكّر على ثقافات العالم، مجلّة العربيّ، الكويت، العدد 537، أغسطس 2003، ص57.

[37]: رفيق المعلوف وعليّ زيتون، الشّاعر الّذي لا يعرف لغته لا يمكنه إنتاج شعر جميل، مجلّة العربيّ، الكويت، العدد 537، أغسطس 2003، ص71.

[38]: ينظر: أنس داود، التّجديد في شعر المهجر، دار الكتاب العربي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1967، ص 63

[39]: ينظر: ثريا عبد الفتّاح ملحس، القيم الرّوحية في الشّعر العربي قديمه وحديثه حتّى منتصف القرن العشرين 1950، دار الكتاب اللّبناني للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، دط، د.ت، ص 193.

[40]: ينظر: كرم معروف شبيب، مستقبل العربيّة بين الفصحى والعاميّة، إشراف: محسن حيدر، المركز الوطني للمتميّزين (وزارة التّربيّة)، سوريا، 2015- 2016، ص 14.

[41]: ينظر: بن عمر سهيلة، الثّنائيّات المكانيّة عند شعراء "جماعة الرّابطة القلميّة" (من جغرافيا المكان إلى شعريّة المكان)، مجلّة المقاليد، العدد الرابع، جوان 2013، ص 21.

[42]: ينظر: اللّغة العربيّة والوعي القومي (بحوث ومناقشات النّدوة الفكريّة)، مركز الدّراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، ط2، 1986، ص 162.

[43]: ينظر: عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطئ)، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2،1389ه/ 1970، ص 171.

[44]: المصدر نفسه.

[45]: المصدر نفسه، ص 109.

[46]: محمّد الأمين شيخة، التّشكيل الأسلوبي في الشّعر المهجري الحديث، إشراف: عبد الرحمان تبرمايسين، جامعة محمّد خيضر (كليّة الآداب واللّغات)، بسكرة، الجزائر، 2008- 2009، ص 105.

[47]: مصطفى صادق الرّافعي، تحت راية القرآن، تصحيح: محمّد سعيد العريان، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط7، 1394ه/ 1974، ص 21- 22.

[48]: ينظر: حمدي الشّيخ، الأدب العربي الحديث، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 2010، ص 32

[49]: ينظر: عيسى النّاعوري، أدب المهجر، دار المعارف للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط3، 1977، ص 230.

[50]: ينظر: نظمي عبد البديع محمّد، أدب المهجر بين أصالة الشّرق وفكر الغرب (دراسة تحليليّة نقديّة موازنة)، ص 393

[51]: ينظر: عيسى النّاعوري، أدب المهجر، ص 230- 231.

[52]: عائشة عبد الرّحمن، تراثنا بين ماض وحاضر، دار المعارف للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر،د.ط، د.ت، ص 61-62.

6. المصادر والمراجع:

الكتب:

- إحسان عبّاس، اتّجاهات الشّعر العربيّ المعاصر، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، ط1، 1978.
- أنس داود، التّجديد في شعر المهجر، دار الكتاب العربي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1967.
- أنور الجنديّ، مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، الشّركة المصريّة للطّباعة والنّشر القاهرة، مصر، العدد51، 1972م.
- ثريا عبد الفتّاح ملحس، القيم الرّوحية في الشّعر العربي قديمه وحديثه حتّى منتصف القرن العشرين 1950، دار الكتاب اللّبناني للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، دط، د.ت.
- جبران خليل جبران، البدائع والطّرائف، المكتبة الثّقافيّة، بيروت، لبنان،د.ط، د.ت.
- جبران خليل جبران، دمعة وابتسامة، دار العرب للبستاني، القاهرة، مصر، ط1، 1991.
- حمدي الشّيخ، الأدب العربي الحديث، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 2010.
- رفيق المعلوف وعليّ زيتون، الشّاعر الّذي لا يعرف لغته لا يمكنه إنتاج شعر جميل، مجلّة العربيّ، الكويت، العدد 537، أغسطس 2003.
- عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطئ)، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1389ه/ 1970.
- عائشة عبد الرّحمن، تراثنا بين ماض وحاضر، دار المعارف للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط1، د.ت.
- عبّاس محمود العقّاد، دراسات في المذاهب الأدبيّة والاجتماعيّة، دط، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر، 2012.
- عبّاس محمود العقّاد، دراسات في المذاهب الأدبيّة والاجتماعيّة، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، 2012.
- عبد العزيز حمّودة، المرايا المقعّرة (نحو نظريّة نقديّة عربيّة)،دار المعرفة للنّشر والتّوزيع، الكويت، دط، 1422ه/2001.
- عبد المنعم خفاجي، الأدب العربي الحديث ومدارسه، ج2، مكتبة الأزهر للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.
- عيسى النّاعوري، أدب المهجر، دار المعارف للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط3، 1977.
- محمّد الكتاني، الصّراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، ج2، دار الثّقافة للطّباعة والنّشر، دار البيضاء: المغرب، دط، 1431.
- محمّد حسين الأعرجي، الصّراع بين القديم والجديد في الشّعر العربيّ،دار عصمي للنّشر والتّوزيع القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.

- محمّد عبد المنعم خفاجي، الأدب العربيّ الحديث ومدارسه، ج2، مكتبة الأزهر للنّشر والتّوزيع القاهرة، مصر، د.ط،د.ت.
- محمّد علاء الدّين عبد المولى، وهم الحداثة (مفهومات قصيدة النّثر نموذجا)،دط، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، 2006.
- محمّد غنيمي هلال، قضايا معاصرة في الأدب والنّقد، د.ط، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر الفجالة، مصر، د.ت.
- مصطفى صادق الرّافعي، تحت راية القرآن، تصحيح: محمّد سعيد العريان، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط7، 1394ه/ 1974.
- مصطفى صادق الرّافعي، وحي القلم، ج3، دار الكتب العلميّة للنّشر، بيروت، لبنان، ط2، 2012.
- ميخائيل نعيمة، الغربال الجديد (مقالات ورسائل نقديّة)، مؤسّسة نوفل، بيروت، لبنان، ط2، 1978.
- ميخائيل نعيمة، الغربال، مؤسّسة نوفل، بيروت، لبنان، ط15، 1991.
- نظمي عبد البديع محمّد، أدب المهجر بين أصالة الشّرق وفكر الغرب (دراسة تحليليّة نقديّة موازنيّة)، دار الفكر العربي للنّشر والتّوزيع، د.ت.

الدّوريات والصّحف:

- بن عمر سهيلة، الثّنائيّات المكانيّة عند شعراء "جماعة الرّابطة القلميّة" (من جغرافيا المكان إلى شعريّة المكان)، مجلّة المقاليد، العدد الرابع، جوان 2013.
- حسن خضر، عبد الرّحمن شكري انفتاح مبكّر على ثقافات العالم، مجلّة العربيّ، الكويت، العدد 537، أغسطس 2003.
- رفيق المعلوف وعليّ زيتون، الشّاعر الّذي لا يعرف لغته لا يمكنه إنتاج شعر جميل، مجلّة العربيّ، الكويت، العدد 537، أغسطس 2003.

الرّسائل والأطاريح:

- كرم معروف شبيب، مستقبل العربيّة بين الفصحى والعاميّة، إشراف: محسن حيدر، المركز الوطني للمتميّزين (وزارة التّربيّة)، سوريا، 2015- 2016.
- محمّد الأمين شيخة، التّشكيل الأسلوبي في الشّعر المهجري الحديث، إشراف: عبد الرحمان تبرمايسين، جامعة محمّد خيضر (كليّة الآداب واللّغات)، بسكرة، الجزائر، 2008- 2009.

مداخلات الملتقيات والمؤتمرات:

- اللّغة العربيّة والوعي القومي (بحوث ومناقشات النّدوة الفكريّة)، مركز الدّراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، ط2، 1986.